[كتاب التوحيد 3]

شرح فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن صالح المحمود

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن صار على نهجهم، واهتدى بهداهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وتجارةً رابحة، واستقامةً على الأمر، وثباتاً عليه إلى أن نلقاك.

نحن مع الدرس الثالث من دروس الوقفات مع أبواب كتاب "التوحيد"، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

اتفضل يا شيخ، كنا وقفنا على باب الدعاء.

القارئ: الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، والحاضرين، والسامعين. قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى : (**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وقوله الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} الآية**).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) أخرجاه.

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: (أين علي بن أبي طالب؟) فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم). يدوكون: يخوضون).

هذا الباب يناسب الأبواب السابقة، لما تكلم عن التوحيد، وفضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، والخوف من الشرك، أعقبه بالدعوة، الدعوة إلى ذلك؛ لأن الإنسان المكلف في هذه الحياة هو مكلفٌ بالعبودية، وأيضاً مكلفٌ بالدعوة إلى هذه العبودية، ورسل الله عليهم الصلاة والسلام وهم الأئمة الذين يهتدى بهم، ويقتدى بهم، كان عنوان رسالاتهم هذا الأصلَ؛ وهو الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وما يلزم على هذه الحقيقة الكبرى، وعلى هذا فإن هذا الباب من الشيخ رحمه الله تعالى هو عنوانٌ لتأصيل، تأصيل لمهمة المسلم في هذه الحياة، وهي أن يدعو إلى الله عز وجل ويكون كما سيأتي بعد قليل ممن يدعو تأصيلاً، وبدعاً، إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وما يلزمها من شهادة أن محمداً رسول الله.

فالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، يحتاج إليها البشر، وهذه قضية ربما يُغفل عنها، خاصةً مع العلاقات الدولية، والحوارات.. وغيرها، فيُظن أن علاقات البشر هي علاقات التعايش، التكافل إن أمكن، تبادل المصالح، تبادل العلاقات. وللأسف الشديد أن هذا هو الذي يجري في عالم اليوم، بينما مهمة أمة الإسلام التابعة لنبيها صلى الله عليه وآله وسلم هي مهمة كبرى في هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه، ألا وهي دعوة الناس إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم يطبقوا مقتضى هذه الشهادة في عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى هذا تأتي ملاحظتان بالنسبة لهذا العنوان:

إحداهما: أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله أصلٌ قائمٌ بنفسه، ينبغي أن يكون ديدن المؤمن في كل زمان ومكان، سواءٌ كان.. انتبهوا معي، سواءٌ كان مع مشركين أنت تدعوهم إلى توحيد الله وهذا ظاهر، أو مع مؤمنين، موحدين، مستجيبين، فأنت تدعوهم إلى توحيد الله؛ لأنه هو أساس إيمان القلب، والعبادة، والطاعة، والغفلة عنه تؤدي إلى خلط، وخطأ، وأحياناً انحراف.

ولهذا يقرر العلماء رحمهم الله تعالى أن الدعوة إلى التوحيد هي أول ما يجب أن يدعو إليه، سواءٌ كان بين المسلمين، أو يدعو غيرهم كما ستأتي الإشارة إليه بعد قليل.

الأمر الثاني بالنسبة للدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، أن مسألة شهادة أن لا إله إلا الله بشروطها ولوازمها هي ذات ثقل كما ذكرنا في الدرس الماضي، ذات ثقلٍ عظيمٍ جداً، فينبغي ألا يُنظر إليها على أنها مسألةٌ مسَلمةٌ فنمر بها عرضاً في دعوتنا، وفي توجيهنا، وفي تأصيلنا، وفي بنائنا المنهجي، والعلمي، والتربوي. نقول كلا، هذه الكلمة هي مفتاح، هي فيصل، هي فارق، والعالم من أقصاه إلى أقصاه إنما تأتي مشكلته من عدم الإقرار بهذه الشهادة.

طيب.. الشيخ رحمه الله تعالى افتتح هذا الباب بالآية، وهي آية عظيمة تحمل منهجاً، لو أُفرد له درسٌ مستقل لما كفاه {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ومفتاح هذه الآية؛ أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي} وعلى هذا فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لو فتشنا عن منهاجه عملياً، لوجدناه كما في هذه الآية، ولو فتشنا عن منهاجه دعوةً، وقولاً، وتوجيهاً، لوجدناه أيضاً منطبقاً ومطابقاً لمدلول هذه الآية، فتكامل العلم والعمل في حياة الداعي إلى الله عز وجل أصلٌ.

نقول هذا لأن من أخطر الأشياء في حياة الأمة وفي حياة الدعاة، أن يكون هناك فاصل بين القول والعمل، بين المنهج الذي تدعو إليه وتؤصله نظرياً، وبين الواقع العملي الذي تعيشه في حياتك، وفي علاقتك.. ونحو ذلك.

نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كانت حياته متكاملة، وكان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم على ذلك، فقول الله عز وجل له: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ} يشمل الأمرين، ولهذا سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قولية وعملية كما هو معلومٌ في مصطلح الحديث.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره الله أن يقول: {هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} وهذا هو القول الصحيح في معناه، أي أنا ومن اتبعني ندعو إلى الله على بصيرة. البصيرة في الدين التي جاءت الإشارة إليها في هذه الآية، تكلم عنها العلماء رحمهم الله تعالى وأفردوا لها معنى متعلقاً بأعمال القلوب؛ البصيرة بالدين {عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} وما الذي تشمله هذه البصيرة؟ تشمل أشياء كثيرة، لكن نذكر منها ثلاثة ضرورية ينبغي أن ندركها وأن نعلمها:

أول هذه المعالم للبصيرة: وضوحها، فهي بصيرة، مبصرة، مضيئة، منيرة، ليس فيها غموض، ليس فيها فلسفة، ليس فيها تعقيد، تصلح للصغير والكبير، والمتعلم وغير المتعلم، ومن ثم كانت دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام لعموم الخلق، وليست خطاباً خاصاً لفئاتٍ معينين .

الأمر الثاني: أن هذه البصيرة قائمةٌ على أسسٍ متكاملةٍ من توحيد الله عز وجل ، وطاعته، وعبادته وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من أمور الدين التطبيقية والعملية، كيف يقول عن هذه إنها على بصيرة؟ لأنها مرتبطةٌ بالوحي من الله عز وجل ، ولهذا يسمى الوحي نوراً، يسمى نوراً، وحياةً، وضياءً، وذكراً.

كذلك أيضاً دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه من أصحابه، ومن سار على طريقتهم، إنما هي دعوةٌ منورةٌ بأنوار الإيمان والعقيدة، العقيدة الصافية، الواضحة، المتكاملة.

{أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} يأتي هنا الأمر الثالث، وهو أن هذه البصيرة أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل هذه البصيرة إنما يسير عليها الإنسان.. انتبهوا! وقد حدد معالم حركة التاريخ من قبل، وأثناء، وبعد. أعظم خلل في الفلسفات، أنها تُعمِّي، تغلق، دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي على البصيرة، يوضح لك البداية والنهاية، يوضح لك الطريق.

ولهذا لما يأتي أي إنسان ليتكلم عن حركة التاريخ من أولها إلى آخرها، يجدها واضحةً تمام الوضوح في ذهنه، في كماله، أسماء الله وصفاته هو الأول والآخر، هو الظاهر والباطن، قضية الزمن، قضية الأولية الله عز وجل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن .

ثانياً: ما هي حركة المخلوقات التي نشاهدها اليوم؟ نقول جاءت الأدلة على أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض ...إلى آخره، ما الذي يتعلق بحركة هذا الإنسان؟ نقول الإنسان مخلوقٌ متميز، خلق الله آدم بيده، وخلق منه زوجه ثم أهبطه إلى الأرض.

طيب، حركة الحياة بعد هبوط آدم؟ قال لك حركة واضحةٌ معالمها. شوف القرآن من أوله وإلى آخره يعطيك معالم التاريخ، الأنبياء السابقون ماذا قالوا؟ وماذا قيل لهم؟ ما هي دعوتهم؟ واضحة مثل الشمس، ثم بعد ذلك يأتي نهايتها مع بعثة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ونزول هذا القرآن المبين، الواضح، المستبين، ثم ما الذي سيحدث؟ قال لك يعطيك التصور، خلقك أنت أيها الإنسان، وما الذي سيجري لك، هذه الحياة إلى أي مدى ستعمَّر؟ ثم النهايتان؛ القيامة الصغرى والكبرى، قيامة كل إنسان بموته، كتبه الله على جميع

الخلق، واضح، كيف سيموت، ما هي معالم الحياة في أثناء الميتة وبعدها، وحياة البرزخ، أو القيامة الكبرى التي يجمع الله عز وجل فيها الأولين والآخرين، ونهاية ذلك، سبحان الله.

أي بصيرة؟ أي بصيرة؟ يرى الإنسان بأم عينيه حركة التاريخ من أولها إلى آخرها، كأنها بمنظار، أو كأنها مثل الشمس أمام عينيه واضحة.

إذن ما فيه غموض الوثنيات ولا الفلسفات، ولا ذلك الذي يقول: "نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"، غموض في غموض، أو ذلك الذي يقول : "جئت ولا أدري من أين جئت وإلى أين أذهب".. لا، على بصيرة، ولهذا تلاحظون هنا أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطي المؤمن النظرة الحقيقية لمسيرة التاريخ بما لم يُعطاه أكبر الفلاسفة، وأعظم الثقافات والأفكار التي تحوي ملايين المجلدات، وهذا هو الفرق بين دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين من لا يسير على طريقة الأنبياء، من متفلسفة، وملاحدة، وزنادقة، ولادينيين، حتى ما حُرف من كتب أهل الكلام فيه ظَلَمات لا تنير الطريق لأتباعها.

ولهذا نجد اليوم الكثير الكثير من النصارى يدخلون في الإسلام، وآخر إحصائية سمعتها قبل يومين في بريطانيا، أن الذي يدخل في الإسلام في كل يعني تقريباً سنة ما يعادل من ستة إلى ست سبعة آلاف يدخلون في الإسلام، وهذه ظاهرة لافتة للانتباه، وكتبت عنها تقارير.

إذن هم لم تشبعهم النصرانية، ولا تلك الديانة الكتابية، وإنما وجدوا الحق في هذا الدين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخلوا فيه على الرغم من قوة أقوامهم، ونفوذهم، وعلى الرغم في مقابل ذلك من ضعفنا نحن المسلمين، لكن هي أنوار النبوة.

هنا في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : {أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} إشارة جميلة إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه من أصحابه هم أعظم الأمم، وأفضل الناس، كقول الله تبارك وتعالى : {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، قوله: {الَّذِينَ مَعَهُ} يدل على أن هؤلاء الصحابة لهم منزلتهم، ومكانتهم، وهذا أمرٌ معروف، ويدخل في ذلك لاحظوا معي كل من سار على هديه إلى يوم القيامة.

قوله: (وَسُبْحَانَ اللّهِ) لاحظوا معي هذه الإشارة في قوله: (وَسُبْحَانَ اللّهِ)، تنزيه، تعظيم لله عز وجل أن يكون له شريك، يدل عليه قوله : {وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى حديث ابن عباس لما بعث معاذاً إلى اليمن داعياً إلى الله وقال: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ...) قصة معاذ بن جبل، وقصة

الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم خارج مكة والمدينة، تحتاج إلى حقيقة وقفة، أحب هنا أن أشير إليها فقط بمناسبة هذا الدرس، وإلا فموضوعنا هو عنوان الباب: "الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله"، النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة كان يخطط لدعوته ونقلها إلى خارج نطاق هيمنة المشركين، ولما اشتد الأذى، أمر بالهجرة الأولى، ثم أمر بالهجرة الثانية، ثم بعد ذلك كانت بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية، ما مدلول هذا؟

انتبهوا.. قد يفهم الإنسان أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما ضُيق على أصحابه، قال لهم اذهبوا إلى ملك لا يظلم عنده أحد، تعبدون الله عز وجل ، لكن الذي وقع، وينبغي أن يقف عنده الدعاة إلى الله عز وجل أنه حتى بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، وأمر الناس بالهجرة، بقي أهل الحبشة بالحبشة، وحتى بعد معركة بدر يوم الفرقان، ونصر الله للمسلمين، بقي أهل الحبشة بالحبشة.

تقول بعض الروايات: إن جعفر بن أبي طالب لما التقى بأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه لما مالت به سفينته إلى الحبشة فلقي المسلمين هناك، قال: ابق معنا، فإنا قد أمرنا أن نبقى هنا، يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمر المسلمين بأن يبقوا هناك، ولهذا لم يرجع أهل الحبشة إلا بعد فتح خيبر، لما قال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كلمته المشهورة، وقد فرح بقدوم أهل الحبشة قال : ((والله ما أدري بأيهما أفرح أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ومن معه من المسلمين)) ، بقي هناك والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هاجر إلى المدينة، وحدثت أحداث، ولم يرجع، إذن هناك نظرة دقيقة فيما يتعلق بالدعوة إلى الله عز وجل ونشر هذا الدين. ولهذا النجاشي أسلم وصلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما تعلمون.

القضية الأخرى هي هذا الحديث الذي معنا، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث معاذاً إلى اليمن، وقال : (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب)، واليمن قبل الإسلام كان فيها الطائفتان المعروفتان؛ كان فيها اليهود، ثم بعد ذلك بعد مجيء المسيح عليه الصلاة والسلام برسالته، والإنجيل أيضاً انتقل بعض النصارى أيضاً إلى منطقة اليمن، وتعرفون قصة أصحاب الأخدود، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعث معاذاً إلى اليمن، وبعثه بهذا المنهاج، الذي جاء تفصيله في هذه الرواية، وتعرفونه ولا ندخل في التفاصيل الدقيقة لها. لكن نقف مع هذه القصة قصة معاذ عدة وقفات؛ لأن شرح الحديث كما تعلمون يطول:

الأولى: هي قوله: (ليكن أول ما تدعوهم إليه هي شهادة أن لا إله إلا الله) وهذه قضية أساسية بالنسبة لدعوة المشركين، أو اليهود، أو النصارى، أن تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وبهذا يُنقض قول من زعم

أن اليهود أو النصارى يشهدون أن لا إله إلا الله، وأنهم مؤمنون. المسألة الآن ليست فقط نطالبهم بشهادة أن محمد رسول الله، وهي أصلٌ، لا تصح الشهادة الأولى إلا به، لكن حتى شهادة أن لا إله إلا الله، الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول إذا لقيت فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، لماذا؟ قال: لأنهم أخلوا بهذه الشهادة. وهذا معلوم من حال اليهود والنصارى، النصارى عبدوا المسيح، وعبدوا مريم.. وغيرهما، واليهود عبدوا الأحبار، وعبدوا أحبارهم وعلماءهم.. إلى آخره، كما جاء في ذلك الآيات، الآيات الأخرى.

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم هنا يقرره هذه الحقيقة، وهي أن دعوة المشركين، دعوة أهل الكتاب، تبدأ بشهادة أن لا إله إلا الله.

المسألة الثانية هنا، أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله مقترنٌ بها شهادة أن محمد رسول الله، فينتبه إلى هذا؛ لأن بعض الناس يظن أن مثل هذا الحديث يقتضي أن مجرد الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله كافية، فنقول لا.

المسألة الثالثة: في قوله: (ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله...) إلى آخره، هو أن شهادة أن لا إله إلا الله، هي مفتاح الدعوة، ومن ثم فإن لوزامها أصلٌ، أصلٌ في الدعوة، ليس فقط مجرد أن ينطق الإنسان، وإنما لوازمها أصلٌ في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وعلى هذا فإن نطق المسلم بالشهادة، ليس هو كما قد يظن البعض كلمة يقولها أمام الحاضرين، أو أمام مكبر الصوت، أو غير ذلك، وأنه يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. لا، هي ليست هذه الكلمة التي تقال وفقط، وإنما هي مفتاحٌ لتغييرٍ متكامل كما ذكرنا في الدرس الماضي.

المسألة الثانية في قوله: (أول) يستنبط العلماء رحمهم الله تعالى من ذلك أن أول ما يجب على المسلم هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسوله، خلافاً لبعض المتكلمين، والمتفلسفة وغيرهم، ذلك الذي يقول أول ما يجب على المكلف التعقل، النظر العقلي، التفكير. بعضهم قال: أول ما يجب الشك، أول ما يجب على الإنسان أن يشك، ليش؟ حتى ينتقل من الشك إلى اليقين.

هذه كلها أقوال لا دليل عليها، وإنما الذي يجب أن يدعى إليه، هو شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو مقتضى ما جاءت به الأدلة الأخرى.

طيب.. في رواية: (أن يوحدوا الله) وهذه الرواية هي دالةٌ على ما دلت عليه كلمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، ولهذا يقول العلماء رحمهم الله تعالى إن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد، ويقولون كلمة التوحيد هي

شهادة أن لا إله إلا الله، فكلٌ منهما دالٌ على الأصل الأصيل، الواجب عل كل مسلمٍ ومسلمة، وهو أيضاً هو الواجب على كل من افتتح دعوته إلى الله عز وجل وهذا هو مفتاح دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

المسألة التي تليها وهي مسألة دعوية يجب أن نقف عندها، هي أهمية الدعوة إلى التوحيد وتأصيله، وهذه قضية يجب ألا نأخذها على أنها فقط قضية التوحيد أولاً، أو أنه يجب أن نبدأ بالتوحيد.. إلى آخره. لا، أقول يجب أن تكون هناك قناعة علمية، ومنهجية، وقلبية لدى الداعي إلى الله عز وجل أن تعبيد الناس لرب العالمين هو مفتاح دعوته، أن تعبيد الناس لله عز وجل بمعرفته، وتوحيده، وشهادة أن لا إله إلا الله، وما يتعلق بها، ولوازمها، هي مفتاح العبادة، والعمل، والدعوة إلى الله عز وجل.

وهذا الحديث أصلٌ في هذا الباب؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل معاذاً إلى أهل الكتاب، وقال: (إنك تأتي أهل كتاب)، استنبط العلماء منها بيان ومعرفة حال المدعوين، وهذه مسألة دعوية معروفة، فهذا تقريرٌ لهذه القاعدة الدعوية الأصيلة.

طيب، المسألة التي تليها وهي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلة) ثم ذكر الصدقة التي تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ...إلى آخره.

استنبط العلماء رحمهم الله تعالى من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (فإن هم أطاعوك لذلك) استنبطوا منها قواعد، نذكر منها قاعدتين:

الأولى: أنه لا صحة للعمل بدون توحيد، أن أي عمل لا يقوم على التوحيد، ولو كان عملاً صالحاً، ولو إنه اتبع فيه نبياً من الأنبياء، فإنه لا يصح إلا بالتوحيد، ولو كان عملاً صالحاً، بأن يكون قائماً على توحيد الله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له؛ لأن الشرك ينقض الإيمان، فينتقض معه العمل، كما أشرنا في أيضاً درسٍ مضى، وهذه مسألةٌ مسَلمَّة.

الأمر الثاني: أن الدعوة إلى الله عز وجل والتدرج فيها أصلٌ في دعوة غير المسلمين من باب الأولية، أي أن دعوة غير المسلمين يجب أن تكون مفتاحها الدعوة إلى توحيد الله، ثم بعد ذلك تأمره بالصلاة، وما يتبع ذلك من أركان، من أركان الإسلام، وكذلك أيضاً بالنسبة للمسلمين فإن الإنسان ينبغي له أن يركز عليها دعوياً، وليس تدرجاً منهجياً.

هنا وقفة قد يخطئ فيها الكثير من الناس ما هي؟ بعض الناس يقول لك لا، أنا أبدأ بدعوتهم، وأعرفهم بالتوحيد. طيب، وغيرها؟ لا، لا، أنتظر، أؤجل، لا آمرهم مثلاً بالصلاة يحافظوا عليها، لا آمرهم بأن يترك الزنا، أو يشرب الخمر، أو نحو ذلك؛ لأن هذه المسائل يجب أن تكون متى؟ بعدما يستقر الإيمان في قلبه.

هنا يا أيها الإخوة حتى لا نقع في الخلط، نفرق بين حالتين:

الحالة الأولى: هي ما نسميها حالة وطريقة التركيز، فنقول نعم، ركز على الإيمان، ركز على التوحيد، لاشك أنه ينبغي أن تركز على الأصل؛ لأن الأصل هو الذي تنقاد له الفروع، فالدعوة إلى الله عز وجل يركز فيها على هذه الأبواب، وهي مفتاحٌ للاستقامة وامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ولاشك أن هذا منهج دعوي يجب أن يكون، وأن يقوم عليه منهاج الدعاة إلى الله دائماً، وبين أمرٍ آخر وهو الزعم بأن هناك تدرجاً في تطبيق الأحكام.

فنقول لا، صحيح هناك القدرة على العلم، على المعرفة، يعني واحد لتوه دخل في الإسلام، قد يصعب أن يكون في يوم وليلة يعرف أحكام الصلاة، وأحكام الصيام، وأحكام الزكاة، وأحكام الحج، لكن يجب عليه بمقدار قدرته، وإذا علمنا أن الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها تتفاوت في معرفتها بالأحكام، عرفنا أيضاً أن المسلم الجديد أو نحو ذلك، إنما لا يكلفه الله عز وجل إلا ما يقدر عليه، فلذلك هو يؤمر بما أوجب الله عليه بحسب الاستطاعة، لكن لا يجوز لأحدٍ أن يضع منهجاً دعوياً ليقول فيه: الآن ندعو هؤلاء القوم إلى التوحيد، وندع بقية هذه الأشياء حتى لو أسلموا، حتى لو وحدوا، ننتظر شهرين، ثلاثة، ست شهور، سنة، حتى نؤصل فيهم الإيمان ثم ندعوهم إلى الصلاة، ثم ندعوهم إلى تحريم شرب الخمر، نقول هذا ليس منهاجاً، ليس منهاجاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى رأس هؤلاء الأنبياء سيدهم وخاتمهم صلى الله عليه وآله وسلم.

حتى نوضح هذه الصورة تعالوا نعطيكم نماذج من السيرة النبوية، الذين يدخلون في الإسلام، كان الكثير منهم يأتي أعرابياً لا يدري شيئاً، فلم يستخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم هذا الأسلوب، وإنما يدخل في الإسلام ويعلمه الصلاة، ويعلمه أصول ما يجب عليه كما أُنزلت، وانظروا إلى حوادث الدخول في الإسلام، انتبهتم معي وإلا لا؟ والشواهد على ذلك واضحة، ما فيه حالة من الحالات، النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال دونكم أخاكم، هذا جاهل علموه شهر، شهرين، ربوه على التوحيد، ثم علموه أن يصلي، أو أن يجتنب المحرمات، لا يوجد هذا.

الأمر الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض طرائق دعوته، عُرض عليه التنازل، تقول بعض الروايات أنه لما حاصر الطائف عرض عليه بعضهم أن يدخل في الإسلام، وأن يتنازل عن الربا، يمكن لأن الربا أو لأن التجارة في ذلك الوقت كانت يعني ذات ثقل بالنسبة لهؤلاء القوم. الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبى، وفيه فرق كبير جداً بين إنسان يقول أنا آبى أن أحرم الربا أو أؤجله، وبين إنسان يقول أقر به ثم معصيةً يأكل الربا، وبين إنسانٍ يقول لا أنا لا أحرم الخمر في هذه المرحلة، وبين إنسانٍ يقول لا الخمر حرام، ثم قد يقع هو في شرب الخمر. الفرق بين المسألتين فرقٌ كبير، مثل ما بين السماء والأرض، وهي التي أخل بها بعض من لا فهم عنده مثل بعض الوعيدية، من الخوارج وغيرهم الذين خلطوا بين إيش؟ بين استحلال المحرم، وفعل المحرم، فقالوا إن الذي يشرب الخمر مستحل، الذي يشرب الخمر هو مستحل، بل أعظم من المستحل، بل قالوا في بعض المواضع هو حاكمٌ بغير ما أنزل الله، نقول لا، لا، لا، لا تخلطوا بالأمر، لا تخلطوا، هناك إقرار وإيمان، هذا أصل، ثم بعد ذلك هناك مخالفة، هناك وقوع في معصية، هذه ليست تلك في منهج الإسلام، النبي صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء لو أنهم التزموا ودخلوا في الإسلام، ثم وُجد منهم من يأكل الربا لنهاه أو لعاقبه، أو نحو ذلك، كما وُجد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وقع في شرب الخمر أو الزنى. انتبهتوا لهذا الشاهد؟

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أبى، مع أن مصلحة الدعوة ظاهراً قد تقتضي شيئاً من هذا، دعه إذا دخل الإيمان في قلبه أو في قلوبهم، بعد سنة أو سنتين هم سيتركون الربا، ويعظمون الباري سبحانه وتعالى ، لا، القضية قضية عبودية، القضية قضية عبودية لله. فإذا رفض جزءاً من العبودية، فكأنه رفض العبودية كلها.

المثال الثالث وهو مهمٌ جداً، لما أن انتقل صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، فوُجد من المرتدين من أبى أن يدفع الزكاة، فما الذي فعله أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه ؟ ما تعامل.. مع أن المسألة جرى فيها نقاش بين الصحابة، ما تعامل معهم مع مقتضى هذه القضية التي معنا، ألا وهي إنه هؤلاء تركوا الزكاة، أمر بعدين نتركها وإن شاء الله يقوى إيمانهم ويستجيبون، ويعلمون أنها تعطى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته، وأنها أيضاً واجبةٌ حتى بعد انتقاله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، أبداً بل أصر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وقال: (أينقص الدين وأنا حي ، والله لو منعوني أعناقاً أو عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه) هل يعني هذا أنه في عهد أبو بكر لا يوجد من لا يدفع الزكاة، أو من يزني ، أو...لا أبداً، لكن هذا أصل، هذا أصلٌ في هذا الباب، ولهذا النبي صلى الله

عليه وآله وسلم كما في هذا الحديث قال: إذا استجابوا فادعهم إلى أن الله افترض عليهم صلوات، ثم إن الله افترض عليهم الزكاة، وهنا تكلم العلماء هل فُرض الصيام في ذلك الوقت أو لا؟ أو الحج؟

والمسألة والحمد لله يسيرة، وليس فيها أي إشكال؛ لأن المعلوم المتَيَقن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبلِّغ أمته كل تشريعٍ ينزل عليه، سواءٌ كان من أركان الإسلام أو من غيرها.

في آخر هذه الرواية ونشير إليها إشارة سريعة، ألا وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)، هذا يعطينا مسألة مهمة جداً، ألا وهي خطورة الظلم، وأن الظلم قد يكون أحياناً بدعوى الحق، انتبهوا معي، بعض الناس يظن أن الظلم لا يقع إلا من الكفار، نقول نعم ، {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لكن نقول لا، من تأمل الأمر يجد أن مسألة الظلم أحياناً قد تقع من الأخيار، ولهذا حرم الله عز وجل الظلم على نفسه وخاطب عباده: ((وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))، انظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلم أصحابه ويربيهم وهم دعاةٌ إلى الله عز وجل في ماذا؟ في دعوة إلى التوحيد، وإلى الصلاة، وإلى إيتاء الزكاة، ثم يقول له إياك والظلم، إياك أن تظلم في الزكاة، انتبهوا.. أن تظلم في الزكاة، ظلم، (كرائم أموالهم) إذن كيف يكون لما الإنسان يظلم في غير الزكاة؟ كيف إذا كان الإنسان يظلم عيني عينك كما يقول العوام والعياذ بالله يفتري، ويظلم، ويأخذ أموال الناس بالباطل ...إلى آخره، إذن الظلم خطورته كبيرةٌ جداً، ويقابل ذلك أن العدل هو مفتاح الحياة، وأعظم العدل توحيد الله عز وجل ثم العدل بين عباده بشرع الله سبحانه وتعالى.

طيب، حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه في قصة فتح خيبر، والحديثان كلاهما في الصحيحين، قال: (يوم خيبر)، وخيبر ليست ببعيدة عنا ذكرناها قبل قليل، لما قدم جعفر بن أبي طالب من (43:46): ((ليعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح على يديه)) هذه من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم هذه واحدة.

ثانياً: فيه فضل علي بن أبي طالب، وأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وبهذا يُرد على النواصب الذين يبغضون علياً وآل بيته.

ثالثاً: أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((يفتح الله على يديه)) ففيه إخبار، إخبارٌ بغيبٍ لم يأتِ بعد، والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا يعلمون علم اليقين أن ما أخبرهم به رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم فهو حقٌ، يعني في الخندق لما يكسروا الصخرة، ويضيء منها نور، يبشرهم الرسول، يُصدِّقون.

في مكة يشكون إليه وهو متوسدٌ بردةً له عند الكعبة، يبشرهم، يصدقون، هذه قضية آمن بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت هي أعظم عونٍ لهم على جهادهم في سبيل الله؛ لأن مبناها على اليقين بوعد نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى.

الصحابة حرصوا، وكلهم يرجو أن يعطاها، ولما أصبح النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((أين علي بن أبي طالب، ثم قالوا هو يشتكي عينيه، وتفل فيها صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له فبرأ كأن لم يكن به شيء)) الشاهد هنا في قوله صلى الله عليه وآله وسلم لما أعطاه الراية: ((انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم))، (على رسلك) يعني بهدوء وأناة.

(حتى تنزل بساحتهم) والساحة كما يقال هي الأمكنة المحيطة بالقرية، أو الحصون، أو غيرها، (حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى).

هنا يا أيها الإخوة في قوله: ((ادعهم إلى الإسلام) هذا فيه إشارة إلى مسألة معروفة لدى العلماء رحمهم الله تعالى في باب الجهاد في سبيل الله، وهو أنه يجب أن يدعى الكفار إلى الإسلام، يدعى الكفار إلى الإسلام، فكل الكفار يجب أن يدعوا إلى الإسلام، وهذه مهمة الرسل، وهي مهمة أتباعهم إلى يوم القيامة (ادعهم إلى الإسلام ثم أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله)، هكذا أجمل في هذا الحديث؛ من توحيد الله، من طاعة الله، من عبادة الله عز وجل إلى آخره.

هنا يا أيها الإخوة في الله أحب أن أسألكم سؤالاً، لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: أول ما تدعهم شهادة أن لا إله إلا الله، فإن أجابوا افترض عليهم خمس صلوات، فإن أجابوا كذا .. وهنا قال ادعهم إلى الإسلام، أخبرهم عما يجب في حق الله، هل هناك فرقٌ بين الحالتين؟ هل هناك فرقٌ بين المدعوين؟

نقول نعم، الجواب فيه فرض، ما الذي يميز أهل خيبر أيها الإخوة؟ ما الذي يميزهم؟ معايشتهم للمسلمين ومعرفتهم بحالهم، يعرفون ما هو التوحيد، ما هو الإيمان، من هو الرسول، ما الذي جاء به، يعرفون وكثيراً ممن كان في المدينة لما هجّر، هجّر إلى خيبر كما تعلمون، بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم هنا يقول: (ادعهم إلى الإسلام أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله)، فهذا فيه بيان تنوع حال المدعوين، فمن المدعوين من يكون جاهلاً، فيحتاج إلى تعليم وتعريف بالإسلام، ومنهم من يكون عارفاً فيحتاج إلى إقامة حجة عليهم، وكل ذلك فعله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الآن في عالم اليوم تجد هاتين الحالتين، تجد نصرانياً في أقصى الفيليبين، أو في أماكن أخرى من العالم، يحتاج إلى أحد يدعوه ويُعرِّفه بالإسلام، وتجد نصرانياً عربياً يقيم بين المسلمين، يعرف الإسلام من أوله إلى آخره، فهل دعوة هذا تكون مثل دعوة ذاك؟ لا شك أن أسلوب الدعوة يختلف، لكن الكل لا يتم له إيمانٌ وتوحيد، إلا بأن يدخل في الإسلام على رأس هاتين الشهادتين، وما يتبعهما من حق الله عز وجل.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: (فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) هذا فيه بيان فضل الدعوة إلى الله، وأن يدخل أحد في الإسلام، وأن هذا من أعظم الأعمال الصالحات، من أعظم الأعمال الصالحات بعد توحيد الله عز وجل أن تدعو إلى الله عز وجل وأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، ففيه إشارةٌ إلى عظم فضل من يكون سبباً في دخول أحد في الإسلام، وفيه إشارةٌ إلى عظم فضل نشر الدعوة إلى الله عز وجل وهداية الناس؛ لأن الإنسان إذا دعا إلى الله كان له أجر من استجاب له، وأجر من تبعه إلى يوم القيامة من غير أن يُنقص من أجورهم شيء، ففرض الدعوة إلى الله متعد، متعد، وعظيم، وكبير.

قصة علي رضي الله عنه وأرضاه هنا نأخذ منها درسين خفيفين نختم بهما هذا الباب:

الدرس الأول: التعامل مع أهل الكتاب، كيف يكون التعامل مع أهل الكتاب، كيف يكون الحوار مع أهل الكتاب.

للأسف الشديد هناك خلل في هذا الباب، يجب أن نكون ناصحين لكل إنسان على هذه الأرض، ودليل النصح أن تبين أنه كافر وأنت تدعوه إلى الإسلام وتدعوه إلى التوحيد، لابد من وضوح هذه القضية، لابد من أن يكون الداعي إلى الله صادقاً، ناصحاً، وهذا من النصيحة. فلملمة الأمور، والشهادة لهم بأنهم كذا وكذا ..مع أنهم قد وقعوا في مجموعةٍ من النواقض، ليست واحدةً، هذا والله خيانةٌ لهم، ومن سكت على ذلك فلربما يحاجونه يوم القيامة، ويتمسكون به ويقولون هذا جالسنا وحاورنا، ما دعانا إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وإنما حاورنا في كيف نواجه الإلحاد، كيف نتعاون على البيئة وما البيئة، وكلام فاضي، يجب أن يكون الإنسان يدعو إلى الله. طبعاً قد تدعو مباشرةً، وقد تدعو عن طريق الكتيب، عن طريق أي وسيلة، لكن المهم أن تكون معك رسالة.

انظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يرسله في مهمة من المهمات، بل في جهاد في سبيل الله، يوصيه بالدعوة إلى الله، ويقول له: (لأن يهدي الله بك) ليست الغاية القتال، ليست الغاية فتح هذه البلاد، لا (لأن يهدي الله) الجهاد في سبيل الله غايته أن تكون كلمة الله هي العليا، فتح القلوب، القلوب

المغلفة التي بيننا وبينها جبال وصدود، الجهاد في سبيل الله يسهلها، ولهذا دخلت البلاد الإسلامية مع الفتوحات في الإسلام وأنقذهم الله عز وجل بذلك من الظلمات، وأخرجهم من الظلمات إلى النور. إذن لابد من البيان الدقيق لهذه القضية.

المسألة الثانية وهي مسألة مهمة جداً، لكنها معروفة لدى الجميع، ألا وهي المسارعة إلى أن تكون ممن يدل الناس إلى الخير، هذا مفتاح لك يا عبد الله، مفتاح لك، خلي دائماً في نفسك، وفي قلبك، وفي سلوكك ومعاملتك، وأخذك، وردك، أنك تريد أن تهدي الناس، في نقاشك، في حوارك، في غضبك، في رضاك، حتى إذا غضبت لا يكون غضبك انتصاراً لنفسك، وإنما هو غضبٌ لله ترجو به أن ينتشر دين الله عز وجل ، فهل تحمل الأمة من هذا دعوتها؟ نرجو ذلك.

اتفضل يا شيخ..

أحسن الله إليكم.

(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً} الآيه وقوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} الآية. وقوله: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} الآية. وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ} الآية.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل).

وشرح هذا الترجمة: ما بعدها من الأبواب).

هذا الباب سماه الشيخ: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) قصد به رحمه الله تعالى أن يُجمل قضايا التوحيد في هذا الباب، ولهذا قال في آخرها: (تفسير هذا الباب ما بعده من الأبواب) لماذا الشيخ أفرده بباب إذا كان سيفسره بما بعده من الأبواب؟ لبيان التلازم بين هذه المسألة؛ لأن بعض الناس أحياناً يفهم من قضايا التوحيد بعض هذه المسائل.

فالشيخ رحمه الله تعالى عقد هذا الباب ليبين أنه لابد من تكامل هذه المسائل كما ذكر أصولها بهذه الأدلة، ما هو تفسير التوحيد؟ ما هو تفسير معنى شهادة أن لا إله إلا الله؟ ذكر فيه هذه الأشياء:

أولها: قول الله تبارك وتعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} المعنى: أولئك الذي يدعونهم من دون الله، من الملائكة والأنبياء والصالحين، هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله أيها المشركون، هؤلاء هم أنفسهم عبيدٌ لله، {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} الوسيلة هنا في هذا السياق، وتعرفون مسألة التوسل التي تكلم عنها العلماء رحمهم الله تعالى : {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} أي يتوسلون إلى الله عز وجل هم عبادٌ لله، يعبدون الله ويتقربون إليه بالتوحيد، والطاعات، والوسيلة هي مصطلح، جاء في كتاب الله، وجاء في السنة، وجاء معناه عند الصحابة، وأحدث فيه المتأخرون بدعةً، أما الوسيلة في كتاب الله فقد وردت في آيتين، في هذه الآية وفي آية أخرى، والمقصود بها هنا الوسيلة أي التوسل والقربة إلى الله عز وجل بعبادته، ومعرفته، وطاعته، إذن الوسيلة في مصطلح القرآن ما هي؟ التوسل إلى الله عز وجل بتوحيده، وعبادته، وطاعته، في السنة جاءت خاصةً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ((سلوا الله لي الوسيلة) هي منزلةٌ أو درجةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد، قال صلى الله عليه وآله وسلم : ((فأرجو أن أكون أنا هو)) فنحن نسأل الله للنبي الوسيلة، وما هو الجزاء؟ فإن من سأل لي الوسيلة حلت له شفاعتي، فمن سأل الله الوسيلة لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم الجزاء؛ شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما أن الله أمرنا بالصلاة عليه، وأمرنا رسوله أيضاً بذلك والجزاء؛ ((من صلى علي صلاةً صلى الله عليه بها عشرة)) ماشي هذا.

الثالث: الوسيلة في مصطلح الصحابة هي طلب الدعاء، وكانوا يطلبون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد مماته، الصحابة كانوا يطلبونها من الصالحين، في حياته يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ادعوا الله لنا، ادعوا الله أن يغيثنا، ادعوا الله أن يهدي أمي، هكذا كان، سؤال العبد، الحي، الحاضر، القادر، أربعة شروط، وأعظم الرسل وأشرفهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فلما انتقل صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، الصحابة بقي عندهم هذا المعنى، لكن لم يسألوا النبي في قبره؛ لأنه لا يُتوسل بذاته، وإنما توسلوا بدعاء الصالحين مثل العباس، لما كان في عام الرمادة، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج بالعباس ومن معه من الصحابة وقال: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإننا نتوسل إليك اليوم بعم نبيك فاسقنا يا عباس ادع) فدعا العباس ودعا عمر وأغاثهم الله، وكان ذلك عام

الرمادة، كان عاماً شديداً على المسلمين في عهد عمر، ولهذا قال العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية إن هذا كان حالة ضرورة، وشدة على المسلمين، فلو أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائزاً لما ترك الصحابة التوسل بذاته، وتوسلوا بالعباس، يعني ما هو فقط دعاء عادي، الأمة كلها فيها شدة، ومع ذلك عمر رضي الله عنه ومن معه توسلوا بمن؟ توسلوا بدعاء العباس، ولم يتوسلوا بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

كذلك أيضاً حتى في عهد بقية الصحابة، يعني في عهد معاوية رضي الله عنه وأرضاه كان جاء في رواية أنه توسل بيزيد بن الأسود، وكان مجاب الدعوة، فأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه هي طريقتهم في فهم التوسل. إذن في القرآن، في السنة، في مفهوم الصحابة، المشكلة ما أحدثه المتأخرون، وهو التوسل بذوات الصالحين، الأموات أو الأحياء، هذا كله بدعة، ليس عليه دليل، ليس عندهم فيه أي دليل، ولهذا قال الله تعالى هنا: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} فهؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله من الملائكة أو الصالحين، أو الأنبياء هم أنفسهم عبيدٌ لله، هم يتوسلون إلى الله، هم يطلبون القرب من الله، أيهم أقرب، فهل يجوز أن تدعوهم من دون الله؟ أن تعبدونهم من دون الله وهذه حالهم؟ هم أنفسم عبادٌ أمثالكم.

طيب، هذه قضية بالنسبة لمدلول هذه الآية، وهي مسألة التوسل ومعناه، وأنه أي أعظم توسلٍ هو ما جاء في القرآن، أن تتوسل إلى الله عز وجل بتوحيده وأسمائه، وصفاته، ثم يجوز أن تتوسل إلى الله بعملك الصالح، أو بدعاء العبد الحي الحاضر، هذان جائزان، لكن أعظم التوسل، التوسل إلى الله بتوحيده، وبتعظيمه، وبأسمائه، وصفاته.

المسألة الثانية وهي مهمةٌ جداً، أن قوله: {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ} هذا فيه انتبهوا معي ردٌ على ما وقع في هذه الأمة للأسف الشديد من التوسل بالصالحين، ودعائهم من دون الله، وعبادة أضرحتهم، ثم إذا قيل لهم هذا شركٌ قالوا لا، الشرك هو عبادة الأصنام، إلى يومنا هذا يقولون هذا الكلام، فنقول هذه الآية ردٌ عليهم، ليه؟ من أين جاء الرد؟ في قوله: {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}، الأصنام هل هي تبتغي إلى ربها الوسيلة؟ لا، ما أحد يقول الأصنام والأوثان تبتغي إلى ربها الوسيلة.

إذن من زعم أن الشرك لا يكون إلا في عبادة الأصنام، نقول لا، الشرك يكون في عبادة الأنبياء، في عبادة الملائكة، في عبادة الصالحين، كما أنه أيضاً يكون في عبادة الجن والشياطين، والطواغيت وغيره، فتبين

بهذا بما دلت عليه هذه الآية من تفسير التوحيد، أن الشرك كما يكون في عبادة الأصنام، أيضاً يكون في عبادة الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، فمن دعاهم أو عبدهم فقد أشرك.

طيب، الآية الثانية نمر عليها بسرعة، وهي قوله تعالى : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} هنا في هذه الآيتين إشارة إلى الحنيفية وقد سبقت، وأن دعوة إبراهيم الخليل قائمة على الولاء والبراء، على التوحيد لله عز وجل الخالص والبراءة من الشرك، {إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} بعدين {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} وهذه الكلمة هي الوصية، هي شهادة أن لا إله إلا الله، فدل ذلك على أن توحيد الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو القدوة في بنيه إلى يوم القيامة، ورسولنا صلى الله عليه وآله وسلم وهو من ذريته أُمر باتباع ملة إبراهيم، فقوله: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أن هذه القضية الكبرى وهي إخلاص التوحيد لله، البراءة من الشرك ومن معبوداتهم أصلٌ باقٍ في الأمة.

ثم ذكر سبحانه وتعالى القضية التي بعد ذلك، وهي ما دل عليه قول الله تبارك وتعالى : {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} ففيه إشارةٌ إلى نوعٍ آخر من الشرك، وهو طاعة الأحبار والرهبان في تبديل الدين، تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، وسيأتي في ذلك إن شاء الله بابٌ مستقلٌ نفصل فيه ما ذكره العلماء رحمهم الله تعالى حول تفسير هذه الآية، وأن من غير دين الله عز وجل فأحل ما حرم الله، أو حرم ما أحل الله، ثم أطاعه قومٌ وأتبعوه على هذا التغيير والتبديل، فقد عبدوهم من دون الله، وهذا هو شرك الطاعة.

ثم ذكر شرك المحبة في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ} هنا ثلاث مسائل :

الأولى: القول الصحيح أن المشركين يحبون الله، لكن يحبون أندادهم كما يحبون الله، خلافاً لمن ظن أن المشركين لا يحبون الله، وإنما يحبون الأنداد، إذن يحبوهم كحب الله، لاحظوا معي، أي يحبون أندادهم كما يحب المشركون الله، بمعنى أن المشركين في قلوبهم حبٌ لله، وهذه قضية يجب أن ننتبه إليها، كما أن في قلوبهم في بعض الأحيان إخلاصٌ لله، {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ} كما أنهم يعرفون الله وأسماءه وصفاته، لكن ما هي مشكلة المشركين؟ أن يرفعوا الأنداد فيحبوها كحب الله، هنا الشرك، هذه المسألة الأولى.

المسألة الثانية: أن هناك فرقاً بين الحب مع الله، وبين الحب لله وفي الله، فالحب مع الله شرك أصغر أو أكبر، سنبينه في الملاحظة الثالثة، لكن الحب في الله أو لله، هو تابعٌ لمحبة الله، فالإنسان يحب النبي، لكن ليست محبته شركاً، يحب إخوانه المؤمنين ، أوثق عرى الإيمان الحب في الله، هذا الحب حبك للمؤمن ليس شركاً، حبك للنبي ليس شركاً، وإنما هو من دلائل توحيد الله لماذا؟ لأنك إنما تحب الأنبياء أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو المؤمنين من أجل حب الله عز وجل . وكلما عظم في القلب حب الله عز وجل ، كلما عظم في القلب حب ما يحبه الله عز وجل.

شوف التلازم بين المسائل، فالذي يحبه الله أنت تحبه، فتحب الصلاة والطاعات، والعبادة والجهاد، وتحب المؤمنين، وتحب المرسلين ..إلى آخره؛ لأن الله يحب ذلك، وأيضاً بضد ذلك تبغض ما يبغضه الله سبحانه وتعالى. إذن هو أوثق عرى الإيمان، الحب في الله أوثق عرى الإيمان؛ لأنها هي الدلائل، يعني هي إن صح التعبير العرى التي تدل على أنك أيها الإنسان متمسك، لست مفلوتاً من عروة التوحيد العظمى، دليل أنه عندك عرى تتمسك بها، تحب هذا في الله، وتحب هذا في الله، وتحب الخير في الله.. إلى آخره. وأيضاً تبغض ما يبغضه الله عز وجل . الخطورة أين؟ أن تحب مع الله، وهذه المسألة الثالثة، فنقول الحب مع الله على درجات، قد يبدأ بالمعصية أو الشرك الأصغر، الإنسان أحياناً يفضل شيء، فإذا فضل شيئاً من غير الله عز وجل فأثر على عبادته، أو طاعته.. أو نحو ذلك، فقد وقع في الشرك الأصغر، وهذا هو المرض المستشري فينا، أسأل الله أن يعافينا جميعاً، نحب الدنيا، ونحب الأولاد، ونحب كذا ونحب كذا، فيؤثر هذا على عبوديتنا لله، وعلى طاعاتنا، وعلى عباداتنا، والإنسان يعيش صراع في هذا الأمر، لكن هو مفتاحٌ خطير جداً، ينبغي أن يعالج فيه الإنسان قلبه؛ لأنه كما هو الحال في خطورة الشرك الأصغر قد يدعوه والعياذ بالله إلى أن يرتقي هذا الحب فيصل إلى إيش؟ إلى مساواته مع حب الله عز وجل فيقع في الشرك الأكبر، إذن إذا وصل إلى حال أن يحبه كحب الله، قد يقول القائل وكيف أعرف أن الأمر وصل إلى أن يحبه كحب الله؟

نقول فيه علامات، لكن في المنهج الإسلامي لابد أن تكون هناك علامات بينة؛ لأن ما يكون في القلوب مما يقوى ويضعف، ليس له ضابطٌ دقيق. فإذا قال قائل: وما الدليل؟ قلنا فيه علامات، منها مثلاً أن يحبه إلى حد العبادة، فيعبده، ويدعوه، ويستغيث به.

إذن هذا دليلٌ على أنه يحبه مثل محبة الله عز وجل ، أو أنه يترك دين الله عز وجل من أجله، فيكون حبه لغير الله تعالى سبباً في تخليه عن شيءٍ من دين الله، وتركه ونقضه، فنقول هذا دليل على أنك تحب مع الله عز وجل . لو جئنا إلى المشركين، ما هي الصفة التي هم عليها حتى نقول يحبونهم كحب الله؟

نقول تجد العلامات، وهذا والله يا أيها الإخوة موجودة اليوم فيمن يتعلق بغير الله، انظر فيمن يتعلق بالأئمة، مثل علي والحسين، ذكرهم لهم أعظم من ذكر الله، بل إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، إذا قيل له وحد الله، قل لا إله إلا الله، اشمأز قلبه، الطرق الصوفية الشيخ عندهم هو هُجَيْراهم ليلاً ونهاراً، كرامات الشيخ، وين راح الشيخ، وإيش قال الشيخ، وإذا ذكر الله وحده اشمأز قلبه، إذن هذه دليل، أو هذه علامة تدل على تعلق القلب بغير الله عز وجل ، فإذا أوصله هذا إلى نوعٍ من الشرك أو العبادة، عرفنا يقيناً أنه والعياذ بالله أحبه كحب الله، وأحياناً يحبه أشد من حب الله عز وجل.

طيب، نختم بهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال.. هذا الحديث حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في صحيح مسلم: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله) عز وجل، هذا فيه تقرير قاعدة سبق ذكرناها في الدرس الماضي، (قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) لازم من الأصل، لا يكفي مجرد التوحيد فقط، بل لابد من أن يكفر بما يُعبد من دون الله، هما متلازمان، وسبق أن ذكرنا إنه هناك خطورة اليوم، في عالم الدعوة يقولون ادعوا إلى الله لكن اترك المشركين، لا تكفرهم، اترك المشركين، لا تقل أنتم تحتاجون إلى التوحيد، ادع إلى الله وفقط، نقول لا، لا يقوم الدين إلا على توحيد الله، وأن يكفر بما يعبد، هذا هو الأصل الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو الذي يؤدي إلى تحقيق التوحيد، كفر بما يُعبد من دون الله، قال: (حرم ماله ودمه) هذا هو العاصم، أن يحقق التوحيد، وأن يكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله، ودمه، قال: (وحسابه على الله تعالى)، وهذه الأخيرة: (وحسابه على الله تعالى) فيه إشارةٌ عظيمةٌ، في منهج الأمة الإسلامية، أن من كان ظاهره الإسلام، ونطق بالشهادتين، فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ولا نفتش عن قلبه، فالأصل انتبهوا من وحد الله، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، الأصل فيه أنه مؤمنٌ مع المؤمنين، فيُنتبه إلى أية قاعدةٍ تخالف هذا الأصل. إن بدا له، أو بدا منه شيءٌ، ينقض هذا الأصل، عاملناه بما يستحق. لكن الأصل في المسلمين، الأصل في أهل القبلة الأصل فيمن

يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، أنه وهو من أهل الإسلام، يحرم دمه، وماله، وعرضه، له ما علينا وعليه..

هذه هي القاعدة العظيمة التي عرفها أئمة الإسلام، وقرروها، فيُنتبه إلى أي أصل ينقل. مثل أحد يريد أن يؤصل أصول، فيقول من قال بها دخل في الإسلام، من لم يقل بها ليس كذلك، نقول لا، هذه طرائق تؤدي إلى لوزام خطيرة، وذات إشكالية، قد تؤدي أحياناً إلى ما لا يحمد عقباه فكراً وعملاً، فلننتبه إلى هذه المسألة، الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية، بقدر ما فيها من الوضوح على بصيرة، أيضاً فيها قوة، ولهذا قوتها في وضوحها، انتبهتم معي؟ قوتها في وضوحها؛ لأنها واضحة، هي قوية ما تلتبس، والمسلم يكون كذلك، يكون واضحاً سهلاً، ليناً مع إخوانه المسلمين جميعاً، ثم بعد ذلك يكون واضحاً في منهجه، هكذا بدأ هذا الباب، وكما قال الشيخ رحمه الله تعالى : (يفسره ما سيأتي من الأبواب).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وسلم.